الفصل الأول

عصر الدولة القديمة (بناة الأهرام)

يبدو أن كلمة فرعون هي تطور لكلمة (برعو)، والتي تعني القصر أو البيت العظيم الذي كان يسكنه الحاكم، ثم امتد مدلول الكلمة ليشمل صاحب هذا القصر، وقد شاع هذا اللقب منذ أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وكان للملك ألقاب أخرى إلى جوار لقب فرعون، منها (حوري) نسبة إلى الإله حورس، واللقب النبتي، وغيرها[1]

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف أصبحت مصر دولة مركزية يحكمها الفرعون ؟

عاش الإنسان البدائي في مصر فوق الهضاب معتمدًا على ماتوفره له الطبيعة من غذاء وكساء دون أن يبتكر أو يصنع، حتى حل الجفاف الشديد فوق الهضاب فاضطر الإنسان مثله كسائر

1- مقتطفات من تاريخ الشرق الأدنى القديم – د. عودة عبد الواحد –ص9

المخلوقات التي سكنت الهضاب بجانبه، إلى النزول من فوق الهضاب بحثا عن الماء والغذاء.

وجد المصري القديم نفسه أمام نهر النيل، وما لبث أن وجده حتى عرف الاستقرار على ضفافه وبنى مسكنه المتواضع من الطوب اللبن (طمي مخلوط بالقش)، وكما علمته الزراعة الاستقرار فقد علمته أيضًا التعاون، فشرعت الأسر والبيوت في الاتحاد مع بعضها مكونة قرى، ثم اتحدت القرى مع بعضها مكونة المدن، ثم نشأت الأقاليم من اتحاد المدن والقرى الكبيرة.

استطاع أحد حكام الأقاليم في الوجه البحري أن يوحد أقاليم الشمال تحت سيطرته وكوَّن مملكة الشمال وعاصمتها (بوتو) واتخذت من نبات البردي شعارا لها، وارتدى ملكها تاج لونه أحمر.

كما حدث في الوجه البحري، حدث في الوجي القبلي بالجنوب، فقد استطاع أحد حكام الأقاليم في الصعيد أن يوحد أقاليم الجنوب تحت حكمه مكونًا مملكة الجنوب، وعاصمتها (نخب)، وكان شعارها زهرة اللوتس، وارتدى ملكها التاج الأبيض.

مرت السنوات حتى كانت الوحدة الأولى لمصر عام 4242ق.م.، تلك الوحدة التي يغفلها الكثير من الباحثين، إلَّا أنها كانت بالفعل

هي أول وحدة تجمع كل مصر تحت حكم حكومة مركزية واحدة، وقد اتخذت تلك الحكومة الموحدة الأولى في تاريخ مصر من مدينة (أون) هليوبليس، ومكانها الآن عين شمس عاصمة لها، إلَّا أن هذه الوحدة لم تدم طويلا وسرعان ما انهارت وانقسمت مصر مرة جديدة إلى مملكتين، مملكة الشمال ومملكة الجنوب.

استطاع أحد أمراء الجنوب يعرف (مينا)، من مدينة طيبة (الأقصر) توحيد مصرمرة ثانية عام 3200ق.م.، تلك الوحدة التي حفظت حدود مصر إلى حد ما، منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا.

ومنذ أن وحد الملك مينا البلاد عام 3200ق.م. يمكننا أن نقول أن عصر الأسر الفرعونية الحاكمة قد بدأ، وقد قسم المؤرِّخ الشهير مانيتون الذي عاش زمن البطالمة هذا العصر إلى ثلاثين أسرة حاكمة، ثم أزاد ما لحقه من علماء إلى تقسيم مانيتون تقسيما جديدا، يقسم عصر الفراعنة إلى ثلاثة عصور، لكل عصر منها مايميزه عن غيره، وذلك حتى يسهل على الناس تتبع أخبارها.

يسبق تلك العصور عصر أقدم عرف بالعصر الأركي، وهو عصر بداية الأسرات، ويضم الأسرتين الأولى والثانية.

• **الأسرة الأولى:**

ارتبط تأسيس الأسرة الأولى بثلاثة أسماء هي (نعرمر – عجا – منى)، يحتمل أنها لملك واحد.[1]

هذا الملك الذي عرف باسم مينا، والذي استطاع توحيد القطرين عام 3200ق.م.، ودوَّن قصة نضاله من أجل توحيد مصر على لوحته الشهيرة التي عرفت باسمه، وهي لوحة حجرية مكونة من وجهين موجودة بالمتحف المصري بميدان التحرير بالقاهرة، ثم تتابع بعده عدة ملوك، مثل: (جروبواجي– دن – عنجاب – سمرخت – قاي عا)

• **الأسرة الثانية:**

كان عدد ملوكها ثمانية، هم: (حتب سخموي – نبي رع – ني نثر – بر أبسن – ونج – سنج– خع سخم – خع سخموي)

• **عصر الدولة القديمة (بناة الأهرام):**

عُرِفَ عصر الدولة القديمة الفرعونية باسم عصر بناة الأهرام، والسبب في ذلك أن ملوك هذا العصر اهتموا ببناء الأهرامات الضخمة، ولم تكن الأهرام حكرًا على ملوك هذا العصر، إلَّا أن ملوك

1– المرجع السابق صـ8.

الدولة القديمة كانت أهرامهم الأكبر والأفخم والأروع والأشهر والأدق تصميما والأكثر عددا بين أهرامات الفراعنة.

يمتد عصر الدولة القديمة في الأسرات من الثالثة إلى السادسة، وكان أشهر ملوكها هم:

1- الأسرة الثالثة:

بدأ عصر الأسرة الثالثة بالملك زوسر، ويبدو أن اسمه الحقيقي (نثر رخت)، وهو ابن خع سخموي أخر ملوك الأسرة الثانية من الملكة ماعت حاب.

استطاع زوسر مد حدود البلاد جنوبا، وسيطر على مملكة النوبة، وكان له الكثير من الأعمال العسكرية المهمة، إلَّا أن السبب الرئيس في شهرته هو أنه صاحب أول هرم في التاريخ والذي يعد كذلك أقدم قبر حجري عرفته البشرية، ويرجع الفضل في بناء قبر الملك زوسر بشكله الهرمي إلى وزيره (ايموحتب) والذي كان عالمًا في مجالات عديدة.

أما عن تعريف الهرم الفرعوني، فهو: بناء ضخم من الحجر يتكون من عدة حجرات، يوضع في إحدى هذه الحجرات تابوت الملك المُتوفي، أي هو عبارة عن مقبرة يُدفن بها مومياء الملك بعد

تحنيطها ومعها كل متعلقاته وأغراضه التي سيحتاجها في العالم الآخر، فمن الجلي أن المصري القديم قد اعتقد في البعث والخلود، والثواب والعقاب، مما كان لذلك أبلغ الأثرفي حياته وعلومه وحضارته.

وهرم زوسر هو الهرم المدرج المشهور في سقارة (قرب الجيزة)، وهو يتكون من ست مصاطب فوق بعضها، لذا عرف بالمدرج.

من أهم ما يميز عصر الملك زوسر أيضًا أن مدرسة أون (عين شمس) قد اهتدت في عصره إلى تقويم جمع بين التقويم النجمي والشمسي، ونفذوه عام 2773ق.م.، واحتسبوا السنة 365يوم، وقسَّموا السنة إلى 12 شهر، كل منها 30 يوم، ثم خمسة أيام نسئ احتفلوا فيها بأعياد الأرباب (أوزير – ايسة – ست – نبتحت – حور)[1].

تعاقب بعد زوسر على عرش الأسرة الثالثة عدة ملوك، وانتهت بالملك حوني الذي حكم 24سنة، وشاد له مهندسوه هرمًا ضخما في ميدوم، وجعلوه على شكل هرم مدرج، إلَّا أنه توفي قبل أن يشهد الانتهاء منه، فأتمه ابنه سنفرو من بعده، والذي اعتبر أول ملوك الأسرة الرابعة.

1– المرجع السابق – ص14

2- **الأسرة الرابعة** (2680ق.م. – 2560ق.م.):

يعتبر ملوك هذه الأسرة من أشهر ملوك مصر عبر عصورها التاريخية كاملة، والفضل في ذلك يرجع إلى أهرامهم الضخمة التي شيدوها في الجيزة، والتي لاتزال شامخة صلبة ناظرة نظرة تحدي قوية إلى كل علماء الهندسة والعمارة في كل العالم، حتى أن الهرم الأكبر الذي يرجع بنائه إلى الملك خوفو اعتبر أحد عجائب العالم القديم.

أما عن ملوك الأسرة الرابعة وأهم أعمالهم، فيمكن ايجازه فيما يلي:

أ–سنفرو: ذكرنا فيما سبق أنه ابن الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة، ويعتبر سنفرو هو مؤسس الأسرة الرابعة، وقد تطور شكل الهرم في عصره إلى الشكل الهرمي المألوف لنا، وقد شيد له مهندسوه هرمين كاملين في دهشور، أحدهما يبدو منبعجًا أو منكسرًا، وربما كان ذلك السبب في لجوءهم لبناء الهرم الثاني. أدرك الملك سنفرو الأهمية الاقتصادية وكذلك الاستراتيجية التي تتمتع بها سيناء، لذا عمد إلى تأمينها دائما، وهو أول من اهتم بسيناء هذا الاهتمام من حكام مصر، واستخرج منها النحاس والفيروز.

ب- خوفو: هو خنوم خوفوي والمعروف باسم خوفو، وهو ابن الملك سنفرو، ونظن أن مجهودات أبيه كانت السبب في توفر الإمكانيات المادية والفنية والمعمارية في عصر الملك خوفو، رغم قلة ما تركه لنا من آثار حيث لم نعثر له سوى على تمثال صغير طوله 9سم، وهرمه الموجود في الجيزة والذي اعتبر من عجائب العالم القديم.

حكم خوفو 23سنة و كان يرتب ليخلفه ابنه كاوعب، إلَّا أنه تُوفي في حياة أبيه.

ج- جد فرع: ابن الملك خوفو، وقد تزوج من أرملة أخيه كاوعب، وقد بنى هرمه في أبو رواش، ولم يطل حكمه أكثر من ثماني سنوات.[1]

د- خفرع: ابن الملك خوفو وأخو جد فرع، تولى العرش بعد وفاة أخيه، ورغم أن له هرمًا كبيرًا وهو الهرم الأوسط بين أهرامات الجيزة الثلاث المشهورة، إلَّا أن تمثال أبو الهول الذي نحت في عهده قد طغت شهرته على شهرة الهرم نفسه، وهو تمثال نُحت على صخرة طبيعية من صخور الهضبة بارتفاع 22متر، وهو على هيئة أسد رابض، رأسه رأس إنسان، ويبدو أنها منحوتة على هيئة الملك خفرع نفسه.

1- المرجع السابق - ص19

هـ- منكاورع: ابن الملك خفرع، تولى الحكم بعد وفاة أبيه، وهو صاحب الهرم الأصغر بين أهرامات الجيزة الثلاث الشهيرة، ولم تملك الدولة في عهده نفس الإمكانيات كما كانت في عهد أبيه وجده، ولكن أهم ما ميز عصر الملك منكاورع هو الحرية الدينية التي اشتهر بها عصره، فلم يضيق على الناس لعبادة إله محدد.

و- شبسسكاف: تولى العرش بعد وفاة أبيه منكاورع، والغريب أنه لم يقم ببناء هرم مثل أسلافه، إنما بنى مقبرته على هيئة مصطبة ضخمة جنوبي سقارة.

ز- خننكاوس: يبدو أنها كانت أخت أو زوجة لشبسسكاف[1]، وآل إليها حكم البلاد بعد وفاته، ثم أصبحت زوجة لأوسر كاف رأس الأسرة الخامسة.

3- الأسرة الخامسة:

جمعت هذه الأسرة فرعي الأسرة الرابعة، فرع خفرع وقد مثلته خننكاوس، وفرع جد فرع الممثل في أوسر كاف، إلَّا أن هذه الأسرة قد أرجعت نسبها إلى إله الشمس رع، وكان الملوك الفراعنة دائما يدعون انتسابهم للألهة لتأكيد حقهم في الحكم.

1- المرجع السابق - ص22

وكان أشهر ملوك الأسرة الخامسة (أوسر كاف – ساحو رع – اسس) وترك ملوك هذه الأسرة أغلب آثارهم في منطقة أبي صير بالجيزة، وأشهرها معابد الشمس المكشوفة، ويبدو أنهم تركوها مكشوفة، لأن طقوس عبادة رع إله الشمس كانت تقام نهارًا أثناء سطوع الشمس.

4- الأسرة السادسة:

جاء الملك تتي على رأس الأسرة السادسة، واشتهر بعده ثلاثة ملوك هم (بيبي الأول – مرنوع – بيبي الثاني)، وقد اشتهر هذا العصر بالبيروقراطية والتي وفرت لكبار الموظفين والكهنة مكانة معنوية ومادية كبيرة، أدت بطبيعة الحال إلى انهيار سلطة الحكومة المركزية في الدولة في نهاية عصر الأسرة السادسة.

بانهيار سلطة الحكومة المركزية، فقد الملوك السيطرة الكاملة على البلاد، لاسيما في عصر بيبي الثاني، الذي تولى الحكم طفلًا، وقد شَهِدَ عصره ثورة اجتماعية واسعة أدت إلى انهيار حكم أسرته، وقد حكم بيبي الثاني مصر لمدة تقترب من 90 عام، وهي أطول مدة حكمها فرعون.